قراءة في حدود التأويل
"منظور أمبرتو إيكو"

الدكتور حفيظ ملواني
جامعة البليدة 2

ملخص باللغة العربية

تسعى هذه الدراسة إلى رصد منظور أمبرتو إيكو في شأن مفهوم ظاهرة التأويل من منطلق أنها في غمار السيميائية ،و بالتالي قد تعد مبعثا لاتساع دائرة التأويل ؛غير أن الخطوط النصية و الوظيفة القصدية تحدّ من هذا الاتساع، بذريعة أن الانفلات في المعنى هو عبث يدمر مشروع أي قراءة تدعي لنفسها شكل النجاعة في غياب الضابط المرغوب

الكلمات المفتاحية: قراءة –تأويل –إيكو –المعنى –القارئ النموذجي

ملخص باللغة الفرنسية

Résumé :

L’objet de cette étude est de faire une mise au point sur la notion d’interprétation, en prenant en considération la définition d’Umberto Eco qui a dessiné une ligne textuelle régie par l’intentionnalité et la contrainte de l’option sémiotique, pour ne pas tomber dans l’infinité du sens et ainsi obstruer une lecture efficace du texte.

السؤال المحوري الذي يمكن أن ينطلق منه الباحث ؛و من ثمة يبرّر مشروعية الإشكالية التي يطرحها السيميائي أمبرتو إيكو(**Umberto Eco**) :هل توجد حدود أو ضوابط تحدّ من تعدّد المعاني في النص الواحد ؟ و هل في ذلك من

معلم يمكن أن نستند إليه ؟ و هل قصدية المؤلف لها دخل في ذلك؟؛أي ما يريد صاحب النص الإفصاح عنه هل هو المعيار الأنسب ؟

1- الجدل المعرفي

قد لا نبالغ عندما نستعرض تاريخ الهرمينوطيقا المعرفي بأنه يدخل في حيز الصراع و الجدل الأيديولوجي؛ وقد نقدّر منجزات رواد الهرمينوطيقا على نسق جهود فردريك شلايرماخر (**Friedrich Schleiermacher**) و ويلهالم دلتي(**Wilhelm Dilthey**) و في الوقت نفسه لو أثرنا مضمار الهرمينوطيقا الأدبية ؛هل يحق لنا أن نقتنع بأن النص الأدبي يمكن أن يكتفي بمعناه الذاتي ومن ثمة تصير عتبة المهمة النقدية في استجلاء هذا المعنى لا غير ؟المهم في هذا المنحى أن يدرك الباحث في التأويل الأدبي بأن مسألة " **تأسيس معنى النص الأدبي قد يكون غاية مشروعة للبحث النقدي إن خضعت لبعض المعالجات غير المصقولة** " [1] كما يمكن توسيع دائرة التأويل بالمنطق الذي يأخذ به جاك دريدا (**jacques Derrida**)عندما أجاز سلطة الكتابة على سلطة الملفوظ ما يتيح تغييب المتكلم لأجل الاستفراد بالنص ؛فيكون اشتغال مسار التأويل حينئذ في أبعد تجلياته [2] على أساس لا وجود لليقين المعرفي مقابل "**إمكانية تأسيس معان متفق عليها بنحو عرفي للنصوص المكتوبة من كل نوع** " [3] وفي ذلك ما يبرّر استحضار جاك دريدا نفسه للمقولة السيميائية عند بيرس (**Charles S.Peirce.**)التي تفيد بوجود شبكة لانهائية من المدلولات لحظة ترحال المؤوّل من علامة إلى أخرى تشير إليها [4]، و لعل الاجتهادات التي أفصح عنها إيكو في مدى إمكانية القارئ و قدرته على إنتاج المعنى عبر المؤلفين" الأثر المفتوح (**l'œuvre ouverte**) و القارئ في الحكاية (**lector in fabula**)" [5] كان لهما الصدى الكبر الذي يجيز منحى التأويل ضمن هذه الوجهة ؛لكن سرعان ما يحدث أن يتدارك الباحث و يعيد النظر في بعض مواقفه ،وقد لا يستبعد في أن تكون حدة الصراع قائمة بالنظر إلى الأطروحة البنيوية التي أرادت أن تقرأ النص الأدبي ضمن حدوده اللغوية المغلقة تحت هاجس الامتثال إلى

الروح الموضوعية تحت مسمى علم الأدب و الاكتفاء بوصف نظام البنية سببا مباشرا في ذلك ؛و من ثمة يتم استبعاد السياقات الخارجية المساهمة في إنتاجه؛ فتأتي نظريات التلقي فتكسّر هذا الحاجز فتدعم حضور القارئ بكافة أشكاله ضمن إطاره المعرفي و السوسيولوجي في آن واحد [6] فما يراه أمبرتو إيكو لا يعد تراجعا لموقف سابق صدر منه ؛ بقدر ما هو إقرار بحقوق القارئ الذي يرتقي إلى مرتبة المؤوّل مقابل حقوق النص إن لم نقل حقوق المؤلف ؛ضّف إلى أن العراك التطبيقي للسيميائيات يعود إلى محك التأويل بامتياز غير أن فعل التمادي في هذا المنحى هو الذي قد يطلق العنان للتأويل دون قيد و لا ضابط "**فالقول بأن التأويل لا محدود من الوجهة الإمكانية لا يعني أن التأويل يملك موضوعا و أنه يجري جريان النهر لا لشيء سوى لذاته ؛و القول بأن النص لا يملك نهاية من الوجهة الاحتمالية لا يعني أن كل فعل للتأويل يمكنه أن يحوز نهاية سعيدة** " [7] ما تجدر الإشارة إليه أن محك التأويل يصطدم بجدلية المقاصد إذ أن التأويل الذي يرضى بمقولة التفسير في أغلبه يستقر على فكرة مفادها ما قصده المؤلف هو المعنى المشروع للنص الذي لا يثير اختلافا غير أن تجلي هذا القصد هو ما يثير الشبهة، فالقصدية التي يسعى إليها المؤلف هي محاطة بلغة حتى و إن كانت من صنعه فهي بدورها في حاجة إلى لغة ثانية تقرأها؛ و هذا المنطق هو الذي يستدعي مقولة تفكيك الشفرات و هو ليس بالأمر الهيّن في أغلب الأحيان ،بالمقابل فرض سلطة المؤوّل يؤدي حتما إلى إنتاج معنى يخدم أغراضه بالدرجة الأولى؛ كأن نقول سوف يقدّم لنا القارئ و هو في صورة المؤوّل المعنى الذي أراده أن يكون؛ فذاك ما يرتضيه للنص دون منازع بغض النظر عن تطلعات مؤلفه.

إن من شأن التماس مبدأ تعدّد المعنى أو بالأحرى تعدّد معاني النص هو آلية مناسبة تخدم كل طرف سواء تعلق الأمر بزاوية المؤلف أومن الوجهة الأخرى أعني مستقبله و هو في وضع المؤوّل ؛إن هذا التوافق قد يبرّره اعتماد لغة غامضة مكرّسة فكرة استخدام المجاز و عليه عندما تبحث عن معنى فتجد نفسك

أمام عدد هائل من المعاني بطريقة ينفلت منك المعنى فيتغلب الطابع الكمي على الجانب النوعي ؛و هذا قد يكون سببه ببساطة غياب التحديدو منه لا وجود لحدود التأويل؛ فالأمر إن لم تستطع أن تضبطه يتعذر عليك التعرف عليه و إخضاعه لسلطة العقل كما تزعم أو ما ترتضيه الرؤية الموضوعية العلمية، فعلى هذه الشاكلة يجعل أمبرتو إيكو وجه التطابق بين الفكر الهرمسي و فكر ما بعد الحداثة نحو مقولة مركزية مستقاة من بول فاليري(**Paul Valery**) على حد تعبير إيكو فيما معناه "**ليس صعبا إدراك فكرة الانزلاق المستمر للمعنى وقد عبر عنه بول فاليري عن الفكرة بالنسبة إليه لا يوجد معنى حقيقي للنص**(**il n'ya pas de vraie sens dans un texte**) **و هو تعبير هرمسي** " [8]

و عليه تبقى المعضلة قائمة على أساس مبدأ يأتي في صيغة جملة من التساؤلات من قبيل :أين يجب أن يتوقف التأويل ؟ و ما هي صفات التأويل المحمود مقابل التأويل المذموم ؟ وفي ظل أي النص يمكن إطلاق عنان التأويل ؟

ما يراه إيكو هو يقينه بوجود عدة اعتراضات قد تقيد مسار التأويل منها ما يتعلق بقدسية النص ؛ ففي "**حالة النصوص المقدسة بالفعل فلا يمكن لأنفسنا أن نسمح بالكثير حيث ما تكون عادة سلطة دينية و تراث يسعى إلى الاحتفاظ بمفاتيح تأويله و ثقافة العصور الوسطى على سبيل المثال قد فعلت ما بوسعها للترويج لتأويل مطلق من الوجهة الزمانية و لكن على الرغم من ذلك محدود في اختباراته** " [9] كما نجد الأثر الذي تخلفه سلطة المؤلف على نصه فماذا تعنيي رواية ذاكرة الجسد دون أحلام مستغانمي و هل من أثر لرواية البيت الأندلسي دون واسيني الأعرج و قد يحدث أن تتشكل حالة اعتراضية أخرى على نحو الفكرة التي أفصح عنها أمبرتو إيكو في شأن قراءة المنجز الأدبي الذي قدمه دانتي أليجري (**Dante Alighieri**) [10] حيث ورد فيما معناه "**قام العديد من النقاد بشكل استحواذي بقراءة و إعادة قراءة مؤلفات دانتي الهائلة لأجل العثور على رسالة مضمرة فيها** " [11] يفسر ذلك أن منحى التأويل الذي احتكموا إليه

هو ما أجازه الشاعر دانتي بطريقة ضمنية وفق معالم نصية هي كلمات مفاتيح تضم في ظاهرها أمورا جنسية منسوبة إلى شخصيات من صلب الواقع و القصد المتخفي هو خطاب ذمّ موجه إلى سلطة الكنيسة آنذاك "**و بإمكاننا هنا أن نتساءل لماذا أجهد دانتي نفسه كل هذا الإجهاد لكي يخفي أهواه الجيبيلية و هو الذي لم يكف عن شتم البابوية جهارا**" [12] الاعتراض الآخر تفرضه سلطة النص دون المؤلف من خلال النموذج التالي الذي قدمه إيكو في شأن قراءة هارتمان(**Hartman Geoffrey**) [13] لقصيدة للشاعر وردزورث (**Wordsworth**) عنوانها لوسي (**Lucy**) ؛عندما تمّ اختيار الشاعر لكلمات القصيدة لم يكن بالنظر إلى دلالتها و إنما بمستلزم إيقاعي يستوفي نظام بناء القصيدة ؛و عليه فالدلالة الشعرية الناجمة لم تكن لتقدر قصد الشاعر بقدر ما يفرضها نظام التأليف في القصيدة ذاتها، و هذا ما يبرّر موقف هارتمان على لسان أمبرتو إيكو "**من الجائز للقارئ الحساس أن يعثر على ما يعثر عليه في النص بسبب أن هذه الروابط على الأقل و بشكل محتمل يستدعيها النص و كذا بسبب احتمال أن يكون الشاعر و(ربما بنحو لا شعوري)قد أبدع بعض التآلفات الإيقاعية للحن الأساسي إذا لم يكن المؤلف لنقل إنها اللغة التي خلقت ذلك التأثير المتكرر** " [14] سنكتشف حينها بأن لحظة فرض النص سلطته التأويلية يكون من صميم الاستراتيجية التي بني عليها انطلاقا من نوعه النصي إضافة إلى تركيبته اللفظية التي باستطاعتها أن تدير لنا قارئا مثاليا يحتكم إلى خصوصية النص في غالب الأحيان بالمقابل يمكن للقارئ الفعلي أن يستعين ببعض الآليات الأسلوبية التعبيرية كي يمرّر تأويله و كأن ذلك ما سمح به النص ذاته فنكتشف حينئذ خاصية التماثل أو التشابه بين الألفاظ و طريقة حسمها عبر النظير(**Isotopie**) استئناسا بالأطروحة الغريماسية [15] و في ذلك يقول إيكو فيما معناه: «**في حالة النصوص فهناك على الأقل دليل يعتمد على عزل النظير الدلالي المتصل بالموضوع** » [16] معنى ذلك أن القارئ يلجأ إلى مجموعة من الألفاظ و المقولات التي يستعين بها في نطاق وضع التشابه و الاختلاف على

أساس المقابلة فيما بينها كي يستطيع استثمار معنى يجد له مبررا نسقيا في النص ؛يعتمد عليه في بناء تأويله، و قد لا تتعدى حقيقة هذا الأمر في مواطن أخرى حدود التخمين ؛و الوضع نفسه يتكرس على مستوى المجاز فبعد أن تقيم رهان التخمين على مستوى الدال ؛تجد نفسك في الاعتبار الثاني تراهن على المدلول ؛و هو ما يقترن بالنموذج التعليلي الذي يرد على لسان أمبرتو إيكو فيما معناه :«**إذا كان أخيل أسدا لأن كليهما شجاع و جسور ستكون قد تمت استمالتنا إلى رفض التعبير المجازي أخيل بطة إذا كان مبررا على أساس ؛من مبدأ أن كليهما من ذوي القدمين هناك بعض الآخرين ممن هم في شجاعة أخيل و الأسد في حين أن هناك كثيرين جدا من هم ذوو قدمين مثل أخيل و بطة** »[17] منتهى هذا التصور أن التأويل إن سار بمقياس الضوابط الكلاسيكية سينحاز لما أراد المؤلف أن يقوله أو ما صرحت به البنية النصية قياسا على منظومته اللفظية و التركيبية بصرف النظر عن قصد مؤلفه الحقيقي .

2- أولويات القراءة

عندما يتحقق هذا التضارب في القضايا المعرفية من خلال النظريات المضادة بل بما في ذلك النظريات التي تحقق في كينونتها نظام التكامل في المعرفة قد يجد الباحث نفسه أمام خيار شائك بأن يتخذ لنفسه موقعا إزاء هذه القضايا الحرجة في سياق تصوّر يراه قارا و مستأنسا قابلا مع كل حلقة معرفية أن يعيد النظر فيه؛ هذا هو المنحى الذي نستشفه عند أومبرتو إيكو ؛بحيث لا ندري او بالأحرى لا نكاد نجزم إن كان توفيقيا أم أنه من صميم الثقافة السيميائية التي أنتجته، يتضح ذلك في سياق قوله فيما معناه :«**هناك حالة على أية حال أشعر فيها بالتعاطف مع العديد من نظريات التوجه نحو القارئ عندما يوضع نص في الزجاجة و هذا لا يحدث فقط مع الشعر أو السرد و لكن أيضا مع النقد الخالص** »[18] مؤدى هذا التصوّر إلى فكرة مفادها عندما يضع القارئ في ذهنه أن النص الذي أنتجه يستهدف جمهورا عريضا من القراء قد يتوقع إمكانية تأويله خارج إطار قصده لاعتبارات أساسية منها طبيعة الصلة التفاعلية

الحاصلة بين النص و قرائه، مما يعني أنك أمام شبكة من العلاقات الثقافية منطلقها النص في حد ذاته؛ إذ هو يشهر لغة منشئه و ثقافة عصره مقابل التعداد الثقافي و اللغوي المتعلق بكل قارئ على حدى؛ دون استبعاد المنحى الإتفاقي السائد على الضوء المعنى المتواتر لنص ذاته ؛أي ما يدخل في اعتبارات التأويلات السابقة في ظل الاحتمال الضعيف في شأن مدى قدرة القارئ على الإحاطة بجميعها، لهذا السبب سيظل " **فعل للقراءة هو إجراء تبادلي صعب بين كفاءة القارئ و نوع الكفاءة التي يفترضها النص المعطى لكي تتم قراءته بطريقة اقتصادية** "[19] إن مسألة العودة إلى قصدية المؤلف الحقيقي ليس مجدية دائما في نظر أمبرتو إيكو و إن تمّ الاقرار بها فهو على سبيل مجرى المساءلة التي يريدها المؤول و التي يمكن أن تضع في حسبانه جملة التأويلات الصادرة من قرائه؛ ليس من أجل الحكم على صحة التأويل المنشود بقدر ما يكون عبارة عن آلية اختبارية تمايز بين قصدية المؤلف الحقيقي و قصدية النص لأجل حصر التعارضات الممكنة؛ إن هذه العملية لا تفيد الممارسة النقدية بقدر ما تخدم هاجس التنظير حسب إيكو مقابل ذلك ما يسمح بتدخل المؤلف الحقيقي ليس من صميم الموقع الذي اتخذه لنفسه أنه المسؤول الأول على هذا النص و إنما إن كان يتمتع بقدر من الكفاءة المعرفية النظرية ؛ كأن نقول سيغير جلده من ثوب المؤلف إلى ثوب القارئ النوعي المنظّر العالم بشؤون النقد و الأدب في هذه الحالة يمكن له أن يبدي موقفا معرفيا وجيها على النحو التالي :«**لا أنا لم أعن ذلك و لكن يجدر بي الموافقة على أن النص يقول ذلك؛وأنا أتقدم بالشكر للقارئ الذي لفت انتباهي لذلك أو بعيدا عن أنني لم أقصد ذلك ؛أعتقد أنه لا ينبغي للقارئ المحنك أن يقبل هذا التأويل لأنه يبدو غير اقتصادي** »[20] يفهم من هذا المنحى أن القراءة التي يعنيها إيكو تحقق قيمة معرفية شبيهة بالخيار الاقتصادي الناجع فتكون حينئذ مجدية وهادفة بأقل جهد و أنفع سبيل ؛ بمعنى ليس بالطريقة التي تهدر زمنها كي تبحث عن فكرة مختبئة في ثنايا النص فتصير حلا للغز يجري البحث عنه ؛بالمقابل يمكن للقراءة التي تستهوي أمبرتو إيكو

أن تنتج لنا معلما نصيا جديدا لما يجري تأويله في المقروء بطريقة تحقق خصوصيات النص و تفي بمطلب القارئ دون أن يكون ذلك من صميم تطلعات المبدع (المؤلف) بالضرورة ؛و هذه مزية التأويل الذي يشرّع للقارئ سلطة المعنى في حدود ما يستحسنه النص مع إمكانية مفاجأة المؤلف الحقيقي دون المؤلف المجرد(الضمني) بمفهوم واين.س. بوت(**Wayne .C. Booth**) [21] أو ما يعنيه إيكو بالمؤلف النموذجي [22] وربما هذا ما ينشده (إيكو) في تعليقه عن أحد نقاد روايته (**بندول فوكو**) بتصوره الذي يفيد فيما معناه "**كتب جيوسو موسكا تحليلا نقديا لروايتي الأخيرة و أعتبره من أفضل الكتابات النقدية التي قرأتها و من البداية على أية حال ؛يعترف بأنه قد انحرف عن بفعل مسلك شخصياتي و مضى يقتنص التشبيهات و هو يقوم ببراعة بفصل العديد من الاقتباسات فوق البنفسجية و القياسات الأسلوبية التي رغبت في أن يتم اكتشافها ؛لقد عثر على روابط أخرى لم أفكر فيها و لكنها بدت مقنعة ؛كما لعب دور القارئ المهوس بعثوره على صلات أذهلتني و لكن لا يمكن دحضها على الرغم من معرفتي بأنها يمكن أن تضلّل القارئ** "[23] وقد تلزم إبداعية الكاتب أن يكون صامتا في شأن ما كتبه ليس لعجزه و إنما لتغذية أطروحات التأويل حتى الغريبة منها إلى وضع قد لا يرتقي فيه التأويل المبتدع إلى حدود العناية الكافية و الضابط في هذه الصورة هو حضور النص بذاته [24]

3- شروط التأويل

إن المبدأ الأساسي الذي يحقق المسار المعرفي السيميائي(**sémiotique**) في نظر أمبرتو إيكو هو أداء التأويل ؛و هذا ما يستوجب من حيث آلية المعالجة التمييز بين السيميوزيس(**sémiosis**) كظاهرة تحقق بنية العلامة على وجه التجسيد تماشيا مع التركيبة الثلاثية التي يضبطها العالم الأمريكي شار ساندرس بيرس(**Charles sanders Peirce**) [25]و منجز السيمياء بوصفه خطابا نظريا يقرأ هذه الظاهرة أي العلامة بمختلف أشكالها و

أبعادها ؛و لعل مقاربة الظاهرة من صميم السيميوزيس باعتبارها كذلك ؛فهي تأخذ بحيز التمثيل دون التفسير و منه التأويل؛

1.3- ثنائية الشكل و المحتوى

لا يستقيم مجرى التأويل من خلال العلامة في ذاتها بقدر ما يستدعي حضور مستخدمها بوجود طرف اسمه المؤوّل دوره الأساسي الوصول إلى دلالة هذه العلامة بالنظر إلى النظام التواصلي الذي يكون أحد أركانه إما من خلال فرضية التعبير أي إنتاج الخطاب أو من زاوية تلقيه فنجد في سياق ذلك ضمن عدد لا متناهي من التأويلات المنطلقة في أساسها من تفسيرات أولية بسيطة ؛فكونك تستبدل كلمة بأخرى أو جملة بجملة مغايرة و تعتقد بأنها تكافئها من الناحية الدلالية تكون قد مارست بشكل ما فعلا تأويليا ضمن بعده السيميائي الصرف؛ و لو اقتصرنا من باب التعليل على نظام استبدال كلمة بأخرى أو ما يعادلها لوجدنا بأن كلمة "**ماء**" تدل على المركبة الكيميائية H2o و العكس صحيح $^{6}_{2}$و لك أن تشير إلى كونه (الماء)محلولا سائلا صالحا للشرب باعتماد آلية تمثيلية من خلال الأخذ بعينة من هذا السائل واسع الاستهلاك الشفاف الرقراق أو الاكتفاء بصورة فوتوغرافية أي وجود علامة أيقونية؛ فتجد نفسك إثر ذلك تستحضر معنى لتغيّب معنى آخر و هكذا تصير العبارة و هي في موطن الدال إلى مدلول الذي يفترض استحضار دال آخر مميّز و هكذا دواليك على وجه الضرورة و الاستعمال احتكاما إلى السياق .

قد تعد آلية التحوّل من الشكل التعبيري إلى محتواه بطريقة مسترسلة أول عتبة في مجرى التأويل و لذلك من حيث المبدأ نعتقد أن الدلالة غير محددة؛ لكن سرعان ما ينبغي الحسم فيها باعتماد دلالة (1)و إسقاط دلالات أخرى منافسة فينجم عن هذا المنحى وجود خيار تملكه الذات المؤوّلة فيتكرس حينئذ جدوى الفعل السيميائي بامتياز انطلاقا من عنصر الكفاءة لدى الذات المؤولة

2.3 ثنائية المثير و الاستجابة

هناك بمثابة فعل لاإرادي بحسب قانون المنبه و الاستجابة سيتحقق على ضوئه استبدال كلمة بكلمة أو عبارة تؤدي دورها الدلالي وتحسمه بطريقة لاشعورية فلو تلفّظت بكلمة زهرة **(fleure)** فلك أن تتصور أن تكون إجابة السامع المخاطب من الوهلة الأولى ؛ بأنك تقصد الوردة الحمراء **(la Rose rouge)** فتبدأ في سياق ذلك العملية التأويلية من خلال التردّد الأولي ،فإن تمّ استبعاد الاحتمال الرئيسي إن صح التعبير فيكون مرد المتلقي اختيار حلول دلالية مغايرة على نحو أنك تقصد اللون أو يعود استخدامك لهذه الكلمة باعتبارها تنتسب إلى قاموس جرترود ستاين **(Gertrude Stein)** [27] و يمكن أن تكون استجابتك في شكل تساؤل: لم أفهم لماذا قلت هذا ؟ بمعنى لماذا استخدمت هذه الكلمة بالذات ؟ [28]

3.3- عامل الفضاء و المقام

إن الذي يشرّع طبيعة المقام الحاصل ضمن الوضعية التواصلية هو الفضاء (**espace**) و تبسيطا أكثر هو المكان، إنه بمثابة الموقع الفيزيائي الذي تجري فيه المحاورة بين شخصين فهو الحامل الفعلي للشبكة العلامية بمعنى هو فضاء العلامات تسكن فيه و تتحرك عبره تصدر من متكلم س لتوجه إلى متلق ع هذا الفضاء بعينه هو الذي يصنع السياق و يتم من خلاله تحري المعنى و على ضوء ذلك يتحدّد التأويل ؛ملامسة هذا الفضاء قد يضع حسب إيكو عدة احتمالات تتوقف على إمكانات الذات المؤوّلة و هو في صورة المتلقي مبدئيا :

- يمكن للمتلقي أن يصدّق أو يكذّب ما يصدر من المتكلم
- عدم فهم لغة المتحدّث ليس باعتبارها لغة أجنبية بالنسبة إليه بقدر ما تكون لغة اصطلاحية تفي بمطلب التخصّص و عليه يعجز المتلقي تفكيك شفرات هذا الخطاب

- بالرغم من فهم المتلقي فحوى الخطاب بوصفه رسالة غير أنه يقرّر تجاهله [29]

4.3- تشكيل فرضية المعنى

لا ينبغي أن تقوم هذه الفرضية في نظر إيكو على وقع الاستنباط **(déduction)** انطلاقا من قضية أ و قضية ب سأتوصل إلى قضية جـ التي تنزل مقام القانون العام [30] كأنك تقول شخص س يمدح شخص ع فيبتهج قضية أ

القضية ب شخص س يمدح شخص ع

القضية ج شخص ع يبتهج بمثابة الاستنتاج الذي لا يمكن الطعن فيه

فماذا لو كان هذا المدح غرضه الاكتساب؛ كما هو حال شعراء البلاط فقد يسعد الخليفة أو السلطان بذلك بحسب المسلك الاستنباطي و قد لا يسعد فذاك هو وجه مخالفة هذه النتيجة المستنبطة ؛و عليه فينبغي أن تتحرر الفرضية من سلطة هذا الاستنباط كي تضع خيارات مختلفة و السبيل الوحيد لذلك ،هو كيف يمكن للمؤوّل أن يتجاوز غموض الرسالة التي يتلقاها و هذا ما يستدعي أن يكون المؤوّل حاسما في خياراته فيقرّر على تحييد معنى على حساب آخر بحسب سياق الخطاب؛ فلو كان الموقف بحق يستدعي المدح فسنستحضر المناسبة الفعلية التي أجازت ذلك ،فلك أن تقارن بين مدح زهير بن أبي سلمى لكل من الحارث بن عوف و هرم بن سنان نتيجة مسعى المصالحة الذي صدر منهما في شأن القبيلتين داحس و الغبراء "**على أن يدفعا ديات القتلى الذين لم يتفق أن ثأر لهم قومهم ،فانتهت تلك الحرب عام 11 ق م (608 م) قبل الإسلام بعامين** " [31] مدح المتنبي للكافور الإخشيدي "**يختلف مديح المتنبي في كافور من مديحه في سيف الدولة .كان المتنبي يحب سيف الدولة و يجله و يكبّر أعماله إكبارا صحيحا و لكن المتنبي لم يجد في كافور ،منذ نزوله في مصر سببا للحب أو الإكبار من أجل ذلك امتلأت القصائد التي قالها المتنبي في كافور بالتعريض و الغمز و**

كان التعريض في القصائد المتأخرة خاصة بارزا جدا لا يكاد يخفى على أحد لكثرة ما ذكر فيها من ألفاظ الغدر و الكذب و التمويه "[32] و عليه فإن استهدفت المناسبة باعتبارها آلية لتقصي حقيقة السياق الذي ولّد إنتاج الخطاب فقد يعد على سبيل التحليل أمرا مشروعا

5.3- التعرّف و الاعتراف

لا يكون منطق التأويل سليما ؛ما لم يكن المؤوّل على معرفة بما يجري تأويله ؛كأنك تقول:« لا يحق لك أن تؤوّل نصا شعريا و أنت جاهل بمواصفات هذا الجنس الأدبي» و عليه فشرط التعرّف قائم على مقارنة بين ما هو محسوس أمامك مقابل ما هو في قيد التجريد ؛بمعنى ستتعرف على نص" أ" المحسوس نصب عينيك لحظة مقابلته بنص آخر"ب" من الصنف نفسه على شاكلة صورة ذهنية بفضل ما استعرضته ذاكرتك ، يفهم من ذلك أنه قد سبق لك أن اطلعت على النص الشعري "ب" فيكون عاملا مساعدا ومحوريا كي تتعرف على النص المستهدف"أ" في أحسن حال ممكن فكلاهما يشتركان في مواصفات واحدة على الأرجح؛ إنه أمر شبيه بالنموذج الذي قدمه أمبرتو إيكو على شاكلة أنني ألاحظ قلم رصاص ثم أتذكر قلم الرصاص الذي استخدمته بالأمس القريب فأقرّر حينها أن كلا القلمين من صنف واحد على ضوء مقارنتهما بما رسمه الذهن كنموذج أوفى لصورة قلم الرصاص بكل صفاته فالعلاقة إذا في كل الأحوال هي ثلاثية محسوس +مجرد + نموذج في الذهن تذكرته [33]

6.3 – مقوّم التمثّل

قد نقول بأن فعالية التأويل لا تستدعي فقط التعرّف على ما يجري تأويله بقدر ما إن كانت متبوعة بقدرة تمثله؛ما يفسر ضرورة إعادة بناء النص المستهدف في الذهن فأنت تحوّله من الطبيعة المنسوخة الورقية أو الالكترونية البصرية إلى حدود التجريد الذهني ضف إلى ذلك ؛ قد تستعين بفكرة النموذج أي نموذج التحليل أو القراءة مثلا أنت تقدم على قراءة

قصيدة ب فلديك نموذج تحليلي مقترن بقصيدة أ فتستبدل معطى أ بمعطى ب ثم تحاول إرساء آلية التحليل و توسيعها من حلقة نص1(قصيدة أ) إلى نص2 (قصيدة ب)

4- من التأويل إلى علم التأويل

يكتسب العلم صفته تلك انطلاقا من دقة وصفه و معالجته لموضوعه المركزي و عليه ؛فعلم التأويل موضوعه دون منازع هو التأويل ذاته ؛ إذ يشكل الوسيلة و الغاية في آن واحد؛ ما قد يترتب عن هذا المنحى السعي في اتجاه بناء معرفة خاصة تشكل الجهاز النظري لهذا العلم؛ دون أن يستطيع فرض طرح منهجي وحيد صارم يصلح في أية ممارسة تأويلية ؛ ما يفسر ذلك هو لجوء المؤوّل في بسط نظام تأويله إلى استخدام أدوات منهجية مستقاة من علوم أخرى يبرّر بها مشروعية التصوّر الذي يؤسّسه ليس من مبدأ الصواب و الخطأ و إنما من حيث المردود الذي يتطلع إليه و هو في أمسّ الحاجة إلى مقوّم التحديد؛ لذلك قد يلجأ المؤوّل بحسب منظور أمبرتو إيكو إلى فقه ثلاثة أبعاد معرفية متعلقة بالعلوم التالية: علم السيمياء(**sémiotique**) وعلم الدلالة (**sémantique**) و ما له صلة بالتداولية **(pragmatique)** يستعين في سياق ذلك بأطروحة الفيلسوف الأمريكي شارل موريس(**Charles Morris**) الذي يجعل من علم السيمياء شبكة محتضنة لعلوم عدة منها ما سلف ذكره؛ تحديدا علم العلامات الذي تؤسّسه نظرية عامة تبحث في ماهية النظام العلائقي للعلامات تحت مسمى سانتكتيك (**syntactique**) ثم علم الدلالة باعتباره النظام الإشاري الذي من خلاله تتحدد صورة العلامة المستهدفة و التداولية التي تضبط صلة العلامات بمستخدميها [3 4] ؛ فالمؤوّل بهذه الصفة عندما يتعامل مع النص من زاوية الموقف العلمي فيمكن أن ندرج فعله ضمن النظرية التأويلية تحت مسمى علم التأويل ؛فيجد نفسه حينئذ أنه أمام بنية من العلامات التي تتأسس على ضوئها بنية النص، فإن أراد إدراك نظام المعنى الذي تخضع إليه

هذه العلامات فهو مطالب بأن يستفيد من علم الدلالة و في ذلك مطلب فقه لغة الخطاب أي النص ؛ و إن لازم سياق تواصل عند استخدام هذا النص فيضع نفسه ضمن ثنائية الباث و المتلقي ، من أجل تجسيد المعنى و ضبطه وفق الفرضية التالية: الباث يقصد دلالة ما من خلال موقف اتصالي أ و المتلقي بدوره سيفهم تلك الدلالة بناء على الموقف الاتصالي السابق ؛ لكن ليس بحسب قصدية صاحبه بقدر ما يفهمها من خلال لحظة و موقع تلقيه لهذا النص بعينه؛ الذي يتخذ لنفسه شكل رسالة و لنقل قد يتقرر فعل تحديد المعنى من منطق تداولي بحسب هذا التساؤل : كيف يصوّر النص متلقيه؟ كيف يمكن للنص أن يتوقع المعنى الذي سيحتضنه متلقيه المفترض أو النموذجي؟و الإجابة ق دتكون واردة على ملامح الإستراتيجية المرسومة في نسقه مقابل ذلك تأتي صياغة أخرى مفادها :كيف ينظر المتلقي الحقيقي إلى النص ؟و كيف يتوقع معناه؟ ؛فنجد على هذه الشاكلة تداولية تراعي أمرين منها نظام الدلالة فتأخذ اسم تداولية دلالية(**une pragmatique de la signification**) و أخرى تراعي نظام التواصل فتصير تدوالية تواصلية (**une pragmatique de la communication**) [35] فالجانب الأول سيراعي منطق المعنى مبدأ الحقيقة فكرة الصواب أما الجانب الآخر سيستقطب في الأساس حسن أداء التواصل تحقيق مبدأ النجاعة(**l'efficacité**) و من ثمة الحرص على مردودية المعنى، و عليه لا يستوي مشروع التأويل دون قراءة صورة النص و صورة القارئ على حد سواء. فتكون وضعية التأويل من خلال عتبات مختلفة:

- كل نص يمكن أن نجد تأويله من خلال نص آخر لاحق أو يوازيه
- النشاط التأويلي هو السبيل الافتراضي الذي يوصل المؤوّل إلى معنى النص

- تتعدّد التأويلات على قدر تعدد السياقات بالمقابل التركيز على السياق هو منحى تحديد طبيعة التأويل و ضبطه

- لا يقتصر المعنى الكامل للعلامة على حدود ما يقترحه النهج التداولي في التعامل مع العلامة ،فالعلامة تشكل طاقة دلالية غير قابلة للاستنفاذ و هي رهينة بموقف تواصلي معين و الموقف بعينه هو عامل ضبط و تحديد في الوقت نفسه

- تأويل أي نص و هو في منطق العلامة الكبرى أو الشبكة المتعدّدة من العلامات يستدعي افتراض سياقاته الممكنة التي يمكن أن تحصل فعندما لا تتجاوز حدود الممكن فهناك ضابط في مسار التأويل الذي تنهجه

- الاحتكام إلى المعنى المتواتر لدى فئة معينة من القراء على مرّ الأزمنة باعتبار ما هو متعارف عليه فيصير من قبيل العادة أن يلتمسوا ذلك المعنى دون غيره فهو ملمح ضبط التأويل

يمكن لنا أن نستخلص من هذه المتابعة العلمية وجود خيارين:

الخيار الأول: لا نلتمس فيه الضابط فيجد المؤوّل نفسه غارقا في متاهات التأويل بل يصير الأمر عبثيا بذريعة تحرّره و تجاوز سلطة النص القائمة.

الخيار الثاني : يجعل من فعل التأويل قراءة لها غاية معرفية بالدرجة الأولى يريد المؤوّل أن يصل إليها ليس بمنطق ما تريده الذات لنفسها و لا بمنظور أنها الحقيقة الكاملة الثابتة و إنما وفق ما يتيحه النص في نطاق صلب تكوينه المعرفي و في حدود نسيج اللغة التي تشكل كينونته ويتحدث بها في الوقت نفسه.

هوامش البحث:

[1]- أمبرتو إيكو .تر:ناصر الحلواني .التأويل و التأويل المفرط .مركز الإنماء الحضاري ط 1 2009 .ص 14 .

[2] -jacques Derrida. *De la grammatologie*, Minuit, Paris, 1967 .p42

[3]- أمبرتو إيكو .تر:ناصر الحلواني .التأويل و التأويل المفرط.ص 15

[4] - Charles S Peirce. Trad : Gérard Deledalle .Ecrits sur le signe .Ed seuil paris 1978 p138-139

[5] -l'oeuvre ouverte .Ed Seuil Paris 1965.

-Lector in fabula .Ed Bernard Grasset Paris 1985 .

[6] -Umberto Eco.Trd :Myreim bouzaher. Les limites de l'interprétation .Ed Bernard Grasset Paris 1992 .p26 .

[7]- أمبرتو إيكو . التأويل و التأويل المفرط .ص32

[8]- المصدر نفسه ص 45

[9]- المصدر نفسه ص 66

[10] - La Divine Comédie, éd. bilingue, éd. J. Risset, Flammarion, 1985-1990 ; éd. H. Longon, Garnier, 1986 ; trad. L. Portier, Le Cerf, 1987, nouv. éd., 2000

[11]- أمبرتو إيكو . التأويل و التأويل المفرط . ص 68

[12]- أمبرتو إيكو تر:سعيد بنكراد .التأويل بين السيميائيات و التفكيكية المركز الثقافي العربي .الدار البيضاء .ط 2000 ص65 .

[13] - جوفري هارتمان .Easy pieces جامعة كولومبيا نيويورك ص 50- 149 نقلا عن التأويل و التأويل المفرط . ص77

[14]- أمبرتو إيكو . التأويل و التأويل المفرط. ص 79

[15] - A. J . Greimas .Du SENS :Essais sémiotique Ed seuil sept 1983 p 61

[16]- المصدر نفسه ص 79

[17] - المصدر نفسه ص 82

[18]- المصدر نفسه ص 85- 86 .

[19]- المصدر نفسه ص 86.

[20]- المصدر نفسه ص 92 .

[21]- Wayne .C. Booth. In Poétique du récit .Ed :Seuil Paris 1977.p92.

[22] - Les limites de l'interprétation P135.

[23]- أمبرتو إيكو . التأويل و التأويل المفرط. ص 105

[24] -Ibid p 143.

[25] - Charles S Peirce..Ecrits sur le signe . p216-217.

[26] - Les limites de l'interprétation .p241.

[27]- مبدعة و شاعرة أمريكية مهتمة بالفن التشكيلي و قضايا المسرح (1874- 1946)

[28] - Les limites de l'interprétation .P 243.

[29] - Les limites de l'interprétation .P246

[30] - Les limites de l'interprétation .P 248.

[31]- عمر فروخ . تاريخ الأدب العربي .الأدب القديم :من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية .الجزء 1 .دار العالم للملايين .بيروت ط 4 1981 .ص 196 .

[32]- المرجع نفسه:الأعصر العباسية .الجزء 2.ص 471 .

[33] - Les limites de l'interprétation. p 249.

[34] -Ibid p 287-288.

[35] -Ibid p 297.